المصطلح السيميائي من خلال مشروع مدرسة باريس:
السيميائية المعجم المعقلن لنظرية اللغة/أ.ج. كَريماس، ج. كورتيس نموذجاً

رشيد بن مالك
جامعة ابوبكر بلقايد- تلمسان

فضلت في هذه التجربة البحثية الجديدة أن أتصدى للمصطلح السيميائي في مصدره الأساسي المعجم المعقلن لنظرية اللغة/ أ. ج. كريماس، ج. كورتيس (1979) المعدل في 1986 و1993؛ سنة بعد وفاة أ.ج. كريماس. وآليت على نفسي أن أقدم للقارئ العربي ترجمة مصطلح أو مصطلحين في كل عدد مزدوج من مجلة بحوث سيميائية. وتقتصر ترجمة المصطلحات على هذا المصدر الذي لا زال يشغل الباحثين ويغذي دراساتهم.

إني أتوقع أن تكون هذه الرحلة العلمية مع القارئ العربي شاقة وهذا لضروب المعرفة الغزيرة التي ينهض عليها المعجم ولصرامة خطابه العلمي الذي جاء في لغة متماسكة ولكنها مستعصية على الفهم حتى عند المتخصصين الفرنسيين في الدرس السيميائي المعاصر. وقد حدثتني الباحثة آن إينو في جلسات عديدة عقدتها معها بدار البحث بباريس عن الصعوبات الكبيرة التي كانت تواجه السيميائيين في السبعينيات وهم يطلعون على إنجازات أ. ج. كَريماس، كما حدثتني عن الترجمات العديدة التي وضعت له في مختلف اللغات.

وينم هذا الاهتمام المتزايد بالمصدر، وإلى يومنا هذا، عن قدرة النظرية السيميائية على فض الإشكالات الكبيرة التي تطرح على الإنسان في تعامله -صناعة وقراءة- مع مختلف الموضوعات السيميائية المعبر عنها باللسان وغير اللسان. وقد لاحظت من خلال اطلاعاتي المتواضعة على مختلف الإنجازات السيميائية العربية، التي تكاد تكون محدودة في مجال الترجمة وغير دقيقة ومبهمة ومتضاربة في أغلب الأحيان، أنها تفتقد إلى الحوار والتنسيق والتماسك المفهومي والمقاربة النسقية في التفكير في ترجمة المصطلح، وتأبى الإصغاء إلى الآخر، وحتى أصحابها لا يملكون الاستعداد لبناء مشروع منخرط في إطار التحري الجماعي.

لكل هذه الاعتبارات، حاولت أن أقرأ المصطلح السيميائي في مصدره بمتابعة أهم التلوينات التي يأخذها في أثناء التطبيق. وحتى أدقق في مفهوم أو فكرة تبدو غامضة أستعين بقراءة ما كتبه كَريماس وفرقة مدرسة باريس على امتداد خمسين سنة من القرن الماضي رغبة مني في محاصرة المفاهيم من خلال السياقات النظرية والتطبيقية التي وضعت فيها. كما كنت ألتفت كلما دعت الضرورة إلى ذلك إلى قراءة بعض الترجمات العربية قراءة متعمقة ومحاورة المفاهيم التي تحيل عليها ومدى وفائها لتلك التي تحملها المصطلحات في اللغة الأصل. من هذه المنطلقات، سعيت إلى قراءة المصدر وحاولت أن أستنطق رموزه وألغازه. أعترف للقارئ أنها قراءة متعبة وممتعة في آن واحد. فهي متعبة لأن المصدر لا يميط اللثام عن مكنوناته بهذه العفوية التي نمسك بمكامنها ونحن نقرأ نصا عاديا، وممتعة لأنك تأمل أن يقطف القارئ ثمار هذه النشوة المعرفية التي تأتي في نهاية كل رحلة مع المصطلح. وهذا أقصى ما يسعد المترجم في تحقيقه.

- **سردية (خطاطة) / (Narrative (schema) / Narratif (schéma)**

1. تعود أصول التفكير حول التنظيم السردي للخطابات إلى التحاليل التي قام بها ف. بروب (V. Propp) على مدونة من الحكايات الروسية العجيبة. بينما أوْلت السيميائية السوفييتية في الستينيات أهمية خاصة لتعميق معرفة الآليات الداخلية لاشتغال الحكايات (أ. ميليتينسكي E. Meletinsky وفرقته)، وسعى الإيتنولوجيون الأمريكيون (أ. داندس A. Dundes) والفرنسيون (د. بولم D. Paulme) إلى تأويل الخطاطة البروبية في سبيل تطبيقها على حكايات

شفوية لإيثنيات أخرى (الأمريكيون الهنود والإفريقيون)، فإن السيميائية الفرنسية اعتبرتها منذ البداية نموذجا قابلا للتحسين يمكن أن يتخذ نقطة انطلاقة لفهم مبادئ تنظيم كل الخطابات السردية. إن الفرضية التي بموجبها توجد أشكال عالمية للتنظيم السردي وضعت بحوث بروب رأسا في قلب مسائل السيميائية الناشئة.

2. إذا كان بروب قد حدد الحكاية الشفوية بتتابع واحد وثلاثين وظيفة، فإنه يشق علينا الوقوف عند المبادئ المنطقية لتنظيمها، ومن ثم، فإن تكرار المهمات الثلاث -المؤهلة، الحاسمة والممجدة- هو الذي يشي باطراد يقع على المحور النظمي ويكشف عن وجود خطاطة سردية قاعدية: وعلى هذا الأساس، يمكن أن تعتبر المهمة كتنظيم (syntagme) سردي مكرر وقابل للتمييز شكليا، ويظل الاستثمار الدلالي الوحيد -المسجل في النتيجة- الذي يسمح بتمييز بعضها عن بعض. إن التحاليل اللاحقة والتطورات التي مست بناء النحو السردي استطاعت أن تقلل، بعد ذلك، من دور المهمة إلى حد اعتباره صورة خطابية سطحية : وهذا لا يمنع من أن يبدو حتى تتابع المهمات، المؤول كتنظيم من الافتراض المنطقي العكسي المحكوم بقصدية يمكن تمييزها لاحقا، شبيها بتلك التي تتخذ لإبراز تطور الجهاز العضوي في علم الوراثة. إذا بدت المهمات، اليوم، بدرجة أولى، كمحسنات صورية لعمليات منطقية أعمق، فإن موقعها يقيدها في المسارات السردية الثلاثة التي تشكل حبكة خطاطة نظمية ذات شمولية كبيرة. بالفعل، تشكل الخطاطة السردية إطارا شكليا ينضوي تحته «معنى الحياة» بهيئاته الأساسية : تأهيل الفاعل الذي يحمل على الانغماس في الحياة، تحقيقه بشيء معين «يقوم به»؛ والتقويم في النهاية -الذي يعد في الوقت نفسه جزاء واعترافا- الذي يضمن لوحده معنى أفعاله ويؤسسه فاعلا وفق الكينونة. إن هذه الخطاطة عامة بما فيه الكفاية وإلى حد ترخص فيه كل التغييرات التي تمس هذه الموضوعة : إذا اعتبرت في مستوى أكثر تجريدا وجزئت إلى مسارات، فإنها ستساعد على مفصلة وتأويل مختلف أنواع النشاطات سواء كانت معرفية أو براغماتية.

3. يمكن أن يتم التعرف على بعض الانتظامات، التي ليست من طبيعة نظمية بل هي من طبيعة استبدالية، من خلال فحص الخطاطة البروبية. وبوصفها إسقاطات للمقولات الاستبدالية على المحور النظمي، يمكن أن تعتبر، استنادا إلى تقدير أولي، كنظم سردية متقطعة. ولئن كانت الانتظامات النظمية تشتغل على تكرار العناصر المتطابقة، فإن الانتظامات الاستبدالية هي تكرار للوحدات مع بنيات أو مضامين معكوسة. وهذا يصدق أيضا على التنظيم التعاقدي للخطاطة السردية.إن المهمات الثلاث التي يضطلع بها الفاعل، إذا صح القول، مؤطرة، في مستوى أعلى تراتبيا، من خلال بنية تعاقدية.على أثر عقد مبرم بين المرسل والمرسل إليه-الفاعل، فإن هذا الأخير يمر عبر سلسلة من المهام ليشرف الالتزامات التي أخذها على عاتقه، ويلقى نفسه في النهاية مجازى من المرسل الذي يقدم هو أيضا إسهامه التعاقدي. وإذا نظرنا في هذا عن كثب، فإن إقامة العقد تنشأ تبعا لتصدع النظام القائم (ونعني بذلك العقد الاجتماعي الضمني الذي خرق) : تتقدم الخطاطة السردية كسلسلة من إقامات الالتزامات التعاقدية واختراقاتها والعودة إلى إنشائها من جديد، إلخ.

4. وقد أدركنا، من جهة أخرى، أن الحكاية البروبية تملك تمفصلا فضائيا قويا وأن مختلف الفضاءات تناسب أشكالا سردية متميزة (الفضاء الذي تؤدى فيه المهمات، مثلا، ليس هو نفسه الذي يبرم فيه العقد ويقوم)، أما العوامل، فإنها تقيم علاقات خصوصية مع الفضاءات التي ترتبط بها (لا يمكن أن يتحقق الفاعل، مثلا، إلا في فضاء يوتوبي ووحيد). وأفسح هذا التمفصل الفضائي للخطاطة السردية –التي اعتبرنا في البداية أنها تملك وضع النظيم السردي المتقطع– المجال لبحوث تواصلت في اتجاهين: وقد دعت، من جهة، المعالجة الأعمق للتنظيم الفضائي إلى اعتبار التفضية كمكون فرعي مستقل نسبيا عن البنيات الخطابية، وقاد، ومن جهة أخرى، تمييز التغيرات المترابطة للفضاءات والعوامل إلى النظر في الفصلات والوصلات المتتالية على أنها مبدأ استبدالي جديد للتنظيم السردي.

5. إن الإسقاط الاستبدالي الأخير، الذي قد يعد الأبرز، يناسب العلاقة القابلة للتمييز التي تقوم بين الوظيفتين البروبيتين «النقص» و«تصفية النقص»،

وتسمح، في حدود قصوى، بتأويل الحكاية كسلسلة من الإخفاقات والتحسنات (قارن أعمال ك. بريمو C. Bremond). للوهلة الأولى، يتعلق الأمر، في هذه الحالة، بإيلاء أهمية ليس لنشاط الفواعل بل لدوران مواضيع القيمة، ولا يبدو حينئذ فواعل الذين ينجزون فعلا إلا منفذين بسطاء مسخرين لتنفيذ خطاطة تحويل المواضيع القائمة سلفا. ولا يمكن أن نعيد تأويل خطاطة تحويل المواضيع كتركيب تواصلي يقوم بين الفواعل إلا بعد تعريف المواضيع كأحياز تتم فيها استثمارات القيم التي تعد خاصيات تتميز بها فواعل الحالة وتحددها في كينونتها.

6. في إطار هذه القراءة الجديدة للخطاطة البروبية تمت الخطوة الحاسمة مع الاعتراف بالبنية الجدلية المستترة فيها : إن الحكاية العجيبة ليست فقط قصة بطل وتحريه، بل هي أيضا، وبطريقة خفية تقريبا، قصة خائن:مساران سرديان لفاعل وفاعل مضاد يجريان في اتجاهين متقابلين، ولكنهما يتميزان باستهداف الفاعلين نفس موضوع القيمة الوحيد : هكذا تبرز خطاطة سردية بسيطة مؤسسة على البنية الجدلية. وإذا نظرنا فيها عن كثب، فإن هذه البنية الجدلية ليست في نهاية الأمر إلا قطبا واحدا من الأقطاب القصوى -ويعد الآخر بنية تعاقدية- للمواجهة التي تميز كل تواصل إنساني : إن التبادل الأكثر سلمية يتضمن مواجهة تقوم بين إرادتين متضادتين ويندرج الصراع في إطار شبكة من الأعـراف الضمنية. وعلى هذا الأسـاس، يظهر الخطاب السردي كحيز تتم فيه التمثيلات الصورية لمختلف أشكال التواصل الإنساني الذي يعد محصلة للتوترات والعودة إلى التوازن.

7. إن المسار السردي للفاعل الذي يبدو أنه يشكل نواة الخطاطة السردية تؤطره من جهتين هيئة متسامية حيث يستقر المرسل المكلف بتحريك وتقويم فاعل باعتباره مرسلا إليه يقع في المستوى المحايث. إن العلاقة بين المرسل والمرسل إليه غامضة : فهي تخضع، من جهة، إلى مبدأ التواصل الذي أشرنا إليه سلفا، والبنية التعاقدية تبدو مهيمنة على مجموع الخطاطة السردية : يناسب أداء الفاعل تنفيذ المقتضيات التعاقدية المقبولة، ويستدعي بالمقابل التقويم؛ غير أن العلاقات المتناظرة والمتعادلة التي تقوم بين المرسل والمرسل إليه -والتي

تسمح بمعالجتهما في الحساب التركيبي كفواعل ف1 وف2- يناقضها جزئيا لاتناظر وضعيهما المتتاليين : يمارس المرسل -لا يهم إن كان محركا مكلفا بتحويل، لحسابه، المرسل إليه إلى فاعل كفء، أو كان مقوما مقيما للسلطة العادلة والمعرفة الحقة- فعلا إفعاليا يضعه في وضعية أعلى تراتبيا بالنسبة للمرسل إليه. غير أن هذا لا يكفي لتحديده : إن التملق، مثلا، بوصفه تشكلا خطابيا يحين على المشهد الفاعل ف1 الذي يحرك ف2؛ ويظل ف2 في حده أعلى تراتبيا من ف1. إن القدرة القائمة سلفا، في تجاوزها للقدرة المحينة، هي التي تميز الوضع التراتبي للمرسل : ينبغي أن تحدد على الأرجح من خلاله الهيئة المتسامية التي أدرجناه فيها.

8. إن الخطاطة السردية التي انحدرت من التعميمات المتتالية انطلاقا من وصف بروب بدت إذن كنموذج إيديولوجي مرجعي سيثير لزمن طويل كل تفكير حول السردية. وسيسمح لنا من الآن بتمييز ثلاثة مقاطع مستقلة للتركيب السردي وهي المسارات السردية للفاعل النافذ، والمرسل المحرك والمرسل المقوم، والنظر بثقة في مشاريع سيميائية الفعل، سيميائية التحريك وسيميائية التقويم. غير أنه يخطئ من يتصور أن توالي هذه المسارات الثلاثة ينتج وحدة تركيبية ذات أبعاد أوسع -ولكنها من نفس طبيعة مكوناتها- تتمثل في الخطاطة السردية. توجد، مع مراعاة كل نسبة، بين الخطاطة السردية، من جهة، والمسارات السردية التي نصادفها فيها، من جهة أخرى، المسافة نفسها بين البنيات العاملية للملفوظ والأقسام النظمية التي تسد هذه الوضعية العاملية أو تلك : هكذا، فإن التشكل الخطابي المماثل لمسار التحريك يمكن أن يناسب «وظيفة» المرسل المحرك، ولكنه يتواجد أيضا داخل مسار الفاعل النافذ (إن بلورة القواعد الخاصة بهذا النوع من التكرار مستبعدة). ويمكن أن نقول إن الاستراتيجية السردية هي التي تضطلع بتنظيم وإدماج المسارات السردية، في حين أن الخطاطة السردية قاعدية وتعتبر نموذجا مرجعيا يمكن أن تحسب، بالارتكاز عليه الانحرافات، التوسعات، والتموضعات الاستراتيجية.